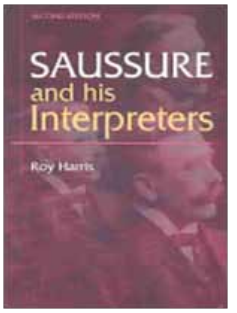

سوسير ومؤوّلوه
روي هاريس

تكمن فائدة كتاب روي هاريس "سوسير ومؤوّلوه" للقارئ العربي في كونه محاولة جريئة في التحليل والنقد لآراء سوسير وأفكاره التي تشكّل نظريّته اللغويّة من ناحية، ولكونه تقصّياً دقيقاً ودؤوباً لما كتبه الأعلامُ من المشتغلين بعلم اللغة. وفي ذلك درس بليغ لنا يبلغنا أنّ المفكّرين والمنظّرين ليسوا بمنأى عن قلم الناقد المنصف وأدواته التحليليّة وأنّ كتابات سوسير ليست نصوصاً مقدّسة بلْ هي تحمل أفكاراً تحتمل الصحّة والخطأ وهكذا ينبغي مناقشتها ونزع صفة القدسيّة عنها. (صدر هذا الكتاب باللغة الإنجليزيّة بعنوان (Saussure and His Interpreters) في عام ٢٠٠٣، عن مطبعة جامعة أدنبره، ٢٦٤ صفحة. وقمت بترجمته وسيصدر باللغة العربيّة قريباً عن دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان).

يقوم هاريس في كتابه هذا بدراسة متأنّية لتأويلات عدد من المفكرين لنظريّة سوسير، وهو يؤدّي ذاك من خلال التركيز على عدد قليل من المفكّرين الذين يمثلون جمهور المؤوّلين. ويضمّ الكتاب بين دفتيه فصولاً تتطرّق إلى تأويلات تلامذة سوسير وأعلام آخرين هم: بلومفيلد، وهلمسليف، وياكوبسن، وبارت، وليفي شتراوس، وتشومسكي، ودريدا.

يستفيد هاريس في تأليف هذا الكتاب ـ كما يبدو جليّاً من الفصول الأولى منه ـ من خبرته الواسعة؛ لكونه مطلعاً بعمق على مصادر المخطوطات (أيْ مدوّنات التلاميذ) التي اعتمدها شارل بالي وألبير سيشهاي في تحقيق ما عُرف فيما بعد بكتاب سوسير "دروس في علم اللغة العام" وإخراجه إلى حيّز الوجود. وقد بُنيت على تلك المدوّنات النسخة الأولى المنشورة من الكتاب. فضلاً عن ذلك، فإنّ هاريس يتمتّع بميزة إضافية لكونه أستاذاً متخصّصاً في مجال علم اللغة بشكل عام والنظريّة اللغويّة بشكل خاصٍّ. وكلّ ذلك يمنحه صورة المؤوّل الذي يحتلّ موقعاً فريداً يمكنّه من التأويل ومن فهم التأويلات السابقة لكتابات سوسير وكذلك التحكيم بينها وإصدار الحكم عليها.

يُمحّص روي هاريس في دراسة مقروءة مستفيضة طريقة تبيان أفكار سوسير أو تشويشها على يد بعض علماء اللغة وكذلك على يد المفكّرين الفرنسيّين من أتباع المدرسة البنيويّة أو ما بعد البنيويّة. ويمثل الكتاب في جوهره دراسة لتاريخ الفكر بتصدّيه للمسألة الشائكة الخاصّة بتأثير أفكار مفكّر مثل سوسير على المفكّرين الآخرين. وتنشأ ـ في هذا السياق ـ مسائل شتّى مثل صعوبة تقييم انتقال الأفكار بين علم وآخر، أو في الواقع بين تقليد ثقافي وفكري معيّن وتقليد آخر. ويفاجئنا

هاريس بكشفه تحريفات خطيرة لنظريّة سوسير فنتساءل هلْ بوسع المرء أنْ يوبّخ بارت بما يُشفي غليله على التشويش الذي أدخله على كتابات سوسير؟ أمْ هلْ في الأمر غرابة عندما نكتشف أنّ بلومفيلد لا يستوعب كتاب سوسير "دروس" بدرجة العمق نفسها التي يستوعبه بها بالي؟

وينبغي القول: إنّ الطريقة التي يقرّ فيها المفكّرون من أمثال دريدا وبارت بأنّ من الصعوبة الاستغناء عن الكثير من المفاهيم والمصطلحات السوسيريّة هي في حدّ ذاتها فضل يُسجّل لصالح كتاب "دروس"، على الرغم من أنّ المصطلحات تُستخدم أحياناً بشكل فضفاض ممّا يجعلها عديمة المعنى، كما في إحالة بارت إلى الأسطورة بصفتها منظومة اتصال ورسالة. لقد استخدم سوسير في محاضراته الكثير من الاستعارات لتوضيح المعنى الذي يقصده؛ أمّا مؤوّلوه فليس من الواضح دائماً سواء أكانت عباراتهم استعارة أمْ لا (يتبادر إلى الذهن هنا تشبيه أنماط القرابة باللغة). ويتطرّق هاريس إلى ذلك بإيجاز ولكن كان بوسعه أنْ يتوسع فيه لا سيّما أنّ كتابه يضمّ مجموعة صغيرة من المؤوّلين في مجلد واحد.

لقد كان بوسع المؤلف أنْ يتطرّق إلى التمييز بين التفسيرات المغلوطة التي أثبت عدم جدواها وتلك التي لمْ تثبت بعد، ولكن لكيْ يقوم بتلك التقديرات على أكمل وجه ينبغي للمؤلف أنْ يكون متخصّصاً في دريدا أو بارت فضلاً عن كونه باحثاً متخصّصاً في سوسير، وذلك سيفضي إلى الإطالة في العرض والشروحات.

ويقترح هاريس في متن شروحه عنواناً ربّما كان أفضل لكتابه وهو "سوسير ومحرّفوه" لأنّ سوسير الذي نعرفه الآن هو نفسه مؤلف الكثير من المدوّنات المخطوطة وكتابات أخرى فضلاً عن كتاب "دروس" المنشور بُعيْد وفاته. بيد أنّ محرّفي كتابات سوسير لمْ يكونوا هم المستخدمين الوحيدين لتلك النصوص. في الواقع، إذا أثبت تحليل سوء تفسير بعض المفكّرين لسوسير كونه إدانة لهم، فإنّ التأثير المتراكم لذلك سيؤدّي إلى الحط من قيمة إسهامات سوسير في تاريخ الفكر. ويرى بعض النقاد لو أنّ هاريس خصّص فصولاً في كتابه لمناقشة آراء المفسّرين الآخرين من أمثال بنفينيست بدلاً من بلومفيلد أو مارلو بونتي بدلاً من دريدا لجعل ذلك من الكتاب دراسة مختلفة أكثر توازناً. بيْد أنّ جهد هاريس واضح في تقصّيه بعين ناقدة ثاقبة آراء المؤوّلين لكتاب "دروس" مع الذين أساؤوا تفسير أعمال سوسير بعد أنْ كانت جميع آراء أولئك وهؤلاء تناقش بصفة عامة بمعزل عن بعضها بعضاً.

يؤسّس هاريس لحقيقة حاسمة وهي المكانة التي أحرزها فكر سوسير في المحيط الأكايمي الأوروبي، والعالمي، وفي تاريخ الفكر اللغوي. ويعرض تأويلات المؤوّلين ويبيّن أهمّيّة عملهم، وما قاموا به من تفسير أعمال سوسير، أو سوء فهم لتلك الأعمال عن قصد أو عن غير قصد. كما يؤكّد المؤلف أنّ "المشكلة الأكثر عموميّة هي أنّ معظم إسهامات سوسير الأكثر أصالة في الفكر اللغوي قد مرّت من خلال واحدٍ أو أكثر من مصافي التفسير. إنّ القليل جدّاً ممّا وضعه سوسير عن

علـم اللغـة العام في سـني حياته فـي جنيف بقـي قائماً، وأنّ مـا هو موجـود قد وصلنا في حالـة متفرّقة ومبعثرة" (هاريس ٢٠٠٣: ٢).

ويتطرّق إلى جهود التلاميذ ـ الذين تتلمذوا على يديْ سوسـير ـ في كتابة الأمالي نقلاً عن محاضرات سوسـير آنفـة الذكـر، ومـا ينطـوي عليه ذلـك مـن اختلافات في المدوّنـات، ويبدو واضحاً مقدار الوقـت والجهد الذي أنفقه المؤلـف في مقابلة النصوص عنـد التلاميذ وتبيان الاختلافات ورصدها والتعليق عليها. ويؤكّد هاريس أنّ قيمـة مدوّنات التلاميذ المتعلقة بأفكار سوسـير الخاصّة باللغـة والدراسـات اللغويّة تكمن في مسـألتيْن لا ينبغي لنا الخلط بينهما. المسـألة الأولى: هي فيما إذا استوعب التلاميـذ بشـكل صحيح دائمـاً النقاط التي نوقشـت في المحاضـرات التي حضروها. والمسـألة الأخرى ـ وهي أكثـر تعقيداً ـ فيمـا إذا كان ما يقال في المحاضرات يقدّم دلالة موثوقة على موقف سوسير المدروس من المسألة موضوع البحث.

يعـرض هاريـس مكانـة سوسـير وأعمالـه عنـد المحققين، والمفسّـرين، والدارسين، وغيرهم. ويتطرّق إلـى جهـود المحققيْـن بالـي وسيشـهاي ودورهمـا في إخراج الكتاب. وقد ألف سيشـهاي كتاباً أسـماه "مقارنة النصـوص" لغرض مطابقـة مدوّنات التلاميـذ وقد أثنى عليـه هاريـس مؤكّـداً أنّ كتـاب "مقارنة النصـوص" ذو أهمّيّـة كبيرة في نقـاط تفصيليّة كثيرة، طالما أنّه يكشـف عـن الكثيـر مـن الشـكوك والتـردّد فـي تحقيـق النـصّ وبصراحـة فائقـة. إلا أنّ هاريـس يسـتدرك مبيّنـاً مـع أنّ كتاب "مقارنـة النصوص" على درجة كبيرة من الأهميّة، ومـع ذلك ينبغي للـدارس أنْ يلجأ إلى كتـاب "دروس" لتقييـم تأويل المحقّقيْن بشـكل شـامل لأفكار سوسـير. ويؤكّد هاريس أنّ بالي وسيشـهاي قامـا بإيراد عباراتهما كما لو كانت عبارات سوسير. وربّما يبدو المؤلف قاسياً بعض الشـيء في تعليقاتـه وعروضه النقديّـة لما يأتي به المؤوّلون في شـروحهم لنظريّة سوسـير وأفكاره، إلا أنّ التدقيـق فيما يذهب إليـه المؤلف يثبـت بالدليل القاطع تجاوز هؤلاء المؤوّلين علـى النصّ واتباع بعضهم طرقاً ملتوية لا تتناسـب وأخلاقيّات مهنة المحققين في سبيل إيجاد الهفوات وتسـجيل العثرات في كتابات سوسير أو في أفكاره.

يناقـش المؤلـف مـدى انتشـار أعمـال سوسـير في القـارّة الأمريكيّة وآراء علماء اللغـة الأمريكيّين في تلك الأعمـال، ويسـوق المؤلـف بلومفيلـد نموذجـاً من بين أولئـك العلماء. لا يبدو هاريس راضياً عن فهم بلومفيلد للنصّ السوسـيري وتأويله لذلك النصّ. وعندما يتطرّق بلومفيلد إلى مبدأيْ الاعتباطيّة والخطيّة عند سوسير فإنّه يحـاول أنْ يبيّن أنّ معظم المصطلحـات، والأفكار التي جاء بها سوسـير كانـت موجودة وقد ظهر قسـم منها في كتاب بلومفيلد "مقدّمة في دراسة اللغة". ولأنّ بلومفيلد لـمْ يتمكن من الحصـول على المصـادر المخطوطة من كتـاب دروس، لذلك فقد عدّ ـ كما فعل جميع معاصريه ـ النـصّ المنشـور نصّاً رسـميّاً. إنّ ما يهمّنـا ـ لأغراضنا الحاليّـة ـ هـو أنّ بلومفيلـد لـمْ يجد سـبباً واحـداً ليمنح سوسـير فضل الأصالة أو نفاذ البصيرة عن هذه المسألة،

بلْ على العكس من ذلك، ربّما افترض بلومفيلد أنّ تفكير سوسير كان ـ برغم كونه على المسار الصحيح ـ ليس ناضجاً. كما يلمّح هاريس إلى أنّ عالم اللغة الأمريكي المعروف أساء فهم التمييز بين علم اللغة التزامني وعلم اللغة التعاقبي، ولمْ يستوعب مفهوم سوسير عن الإشارة ولمْ يدرك بشكل صحيح العلاقة بين موقف سوسير النظري وموقفه هو.

يعالج هاريس آراء هلمسليف في سوسير ويصوّر نظريّة التحليل اللغوي لدى عالم اللغة الدنمركي هلمسليف بصفتها واحدة من النظريّات التي تدّعي بأنّها النتيجة المنطقيّة للبنيويّة السوسيريّة، بيْدّ أنّها تنتهي إلى ما يشبه "قياس الخلف" على أفكار سوسير. إذ يؤكّد هاريس (٢٠٠٣ ص٩٠) ذلك بقوله: "تبيّن لنا نظريّة التحليل اللغوي ما يحدث في علم اللغة عندما يُعالج مفهوم اللسان بمثاليّة إلى الحدّ الذي نفترض فيه أنّ اللسان موجود بشكل مستقلٍّ عن أيّما تجسيد مادّي محدّد مهما كان نوعه"، وهكذا يُجرَّد اللسان من النواحي الاجتماعيّة التي كان سوسير قد وظفها في المفهوم.

يحاول المؤلف سبر غور موقف ياكوبسن من سوسير ونظريّته اللغوية. ويَبرَع هاريس في تقصّي ما يمكن أنْ نُطلق عليه إنتهازيّة بعض المؤوّلين، من أمثال ياكوبسن الذي يستشف من كتاب "دروس" ما يتلائم مع أغراضه حسب المكان الذي يجد نفسه فيه وحسب المُناخ الفكري السائد. ولعلّ ياكوبسن يحظى بالحصّة الأكبر من الانتقاد اللاذع لكثرة تناقضه في طروحاته وتعمّده التحريف والتشويه فضلا عن ترجّحه بين موقفه المؤيّد لسوسير ورفضه لنظريّة سوسير في مبادئها الصميمة. ويؤكّد هاريس على أنّه في الوقت الذي يقدّم فيه ياكوبسن نفسه بصفته سوسيريّاً، نجد هذا العالم اللغوي الروسي يتنكّر لعدد من المبادئ الرئيسة في فكر سوسير اللغوي، ويشمل ذلك المبدأيْن الأساسيّيْن "الخطّيّة والاعتباطيّة". ويذهب هاريس إلى أبعد من ذلك فيقسو على ياكوبسن وينعته بالانتهازيّة خلال مسيرته العلميّة لتباين آرائه في تقدير أهمّيّة سوسير. ويجادل هاريس بأنّه عندما كان ياكوبسن في أوروبا كان مضطراً إلى الإعراب عن تقديره سوسير، ولكنّه عندما هاجر إلى أمريكا وحاول أنْ يُرسّخ مكانته بصفته عالماً لغويّاً ـ في وقت سادت فيه المدرسة السلوكيّة وعمّت المشاعر المناوئة للمدرسة الذهنيّة ـ تحوّل ياكوبسن إلى أسلوب الهجوم على سوسير.

كما يتناول هاريس آراء ليفي شتراوس وهو واحد من علماء الأنثروبولوجيا البارزين. لقد شرع ليفي شتراوس في عام ١٩٤٥ بتقديم علم اللغة بصفته العلم النموذجي الرائد الذي ينبغي لعلم الأنثروبولوجيا الناشيء أنْ يحذو حذوه، بيْدَ أنّ ليفي شتراوس لمْ ينشر مقالته الموسومة "التاريخ وعلم الأعراق" حتى عام ١٩٤٨ حيث تمّ الاحتفاء بكتاب "دروس"؛ لكونه يؤشّر بمَقْدَم علم اللغة البنيويّ. ويؤكّد هاريس أنّه على الرغم من أنّ ليفي شتراوس يعدّ تطوير مفهوم "الفونيم" فتحاً جديداً في علم اللغة الحديث، إلا أنّه لا ينسب فضل ذلك إلى سوسير. وقد صاغ ليفي شتراوس مفهوم "الميثيم" (وهو الوحدة الصغرى ذات المعنى في خطاب الأساطير)

على غرار "الفونيم" (الوحدة الصوتيّة المميّزة). ويُدرج هاريس مشكلة استعارة مفردات علم اللغة ـ وإعادة تشكيل سياقها واستعمالها في علم الأنثربولوجيا ـ ضمن فئة عامّة وهي: "سوء امتلاك علم الأنثروبولوجيا لمفردات البنيويّة". ولا يشتمل سوء امتلاك ليفي شتراوس فكرة "الفونيم" وحسب، بلْ يتعدّاها إلى التضادّ الذي يؤسّسه سوسير بين التزامني والتعاقبي، وكذلك فكرة المنظومة أو البنية. وعلى الرغم من أنّ ليفي شتراوس يلجأ بشكل دائم إلى التضادّ بين التزامني والتعاقبي، إلا أنّه يتردّد بشكل واضح في قبول نسخة سوسير من ذلك التمييز الأساسي. ومن اللافت أنّ سوسير وليفي شتراوس يستعملان المصطلحات ذاتها مثل اللغة والمجتمع والتواصل، إلا أنّهما لا يقصدان المعاني ذاتها التي تحملها تلك المصطلحات.

ويلقي الكاتب الضوء على موقف بارت من سوسير وآرائه وكتاباته. كما يقوم الكثير من النقاد بالإحالة إلى التمييز المهمّ بين اللسان والكلام واللغة وكذلك مفهوم سوسير عن الإشارة بطريقة مغلوطة، فمثلاً يدّعي بارت (في تناقض صارخ مع ما يقوله سوسير) أنّه لا يمكن تأسيس علم اللغة الخاصّ بالكلام. كما نجد بارت يضيف لاحقاً إلى المقالات الواردة في كتابه مجموعة الأساطير رسالة تزعم بأنّها تقوم على كتاب "دروس"، ويرى هاريس في تلك الإضافات التي يقوم بها بارت مثالاً على النزعة الباريسيّة في التصيّد بحثاً عن نظريّة توافق الطراز الحديث. على سبيل المثال يقوم هاريس بتعقب اقتراح بارت ـ القائل بأنّ السميولوجيا يجب أنْ تُعدّ جزءاً من علم اللغة ـ إلى هلمسليف. في الوقت الذي يشكل فيه مقترح بارت قلباً لمقترح سوسير، إلا أنّه ينسجم تماماً مع نظام بارت للأشياء ويستحق المناقشة في الأقلّ.

يعرض الكتاب آراء تشومسكي في نظريّة سوسير اللغويّة؛ ويبدو هاريس أشدّ قسوة على تشومسكي ويرى أنّ الأخير أبعد من أنْ يرى نفسه سوسيريّاً بلْ كان يفصح في جميع الأحوال مبدياً أنّه أكثر أهمّيةً ليرى أنّ سوسير من أتباعه هو. ولكن على الرغم من محاولة تشومسكي تضمين التمييز بين اللسان والكلام في ثنائيّته الخاصّة بالكفاءة والأداء، وكذلك تسخير منهج سوسير في المدرسة الذهنيّة (الذاتيّة) لأغراض حملته ضدّ المدرسة السلوكيّة التي كانت سائدة آنذاك إلا أنّ عدم اكتراث سوسير الظاهر بخاصّيّة التكرار يوضّح "أنّه عندما يكون المرء من أتباع المدرسة الذاتيّة "الذهنيّة" فلا يجعله ذلك تلقائيّاً من المدرسة التوليديّة، بينما في الوقت ذاته طرحت وجهة نظر سوسير في الكلام السؤال برمّته وهو كمْ يمكن أنْ يُنسب إلى القواعد/ المنظومة بمفردها وكمْ يمكن أنْ يُنسب إلى الفرد؟ وهكذا جلبت وصاية سوسير معها مشاكلَ معيّنة لتشومسكي". وعندما ينتقد هاريس محاولات تشومسكي لتحرير نفسه من تلك المشاكل، فإنّما يتخلى عن النقاش البنّاء لصالح الهجوم على تشومسكي بتعليقه: "تبدو 'بصيرة' تشومسكي التي كثر مديحها المتعلقة بالطبيعة اللانهائيّة للنظم النحوي متزامنة مع ضعف بصره في قراءة سوسير".

يتعقب هاريس تعليقات دريدا على أعمال سوسير ويردّ عليها بشكل تفصيلي مدعم بالأمثلة المأخوذة

مـن كتابات دريدا نفسـه. بيْدَ أنّ الاسـتعارة الطاغية التي يسـتخدمها هاريـس في هذا الفصـل هي أنّ دريـدا يبدو كأنّـه مدّع عام منعـدم الضمير بينما يبدو سوسـير بصفته المشـتكي البائس ـ الذي تستعمل مفرداته وآراؤه خارج نطاق السياق وتوجّه ضدّه ـ لكنّه لا حول له ولا قوّة وليس باستطاعته أنْ يدافع عن نفسه بالشكل الصحيح. على أيّة حـال، لا بدّ من الاعتراف بالخدعة الفكريّة الآسـرة التي يمارسها دريدا في مجادلته ضدّ سوسير، إذ يقوم هاريس بإيضاح ذلك بشكل يدين فيه دريدا في موضعيْن: الأوّل، عندمـا يصرّ دريدا على تشـبيه تعريف سوسـير للإشـارة بتعريف أرسطو وذلك ممّا يفقده مصداقيّته بصفته مؤرّخاً (هاريس، ٢٠٠٣، ص١٧٥). والثاني، عندما يتهم دريدا سوسير بالتأكيد على الأفضليّة التي يمنحها الفكر الغربي للكلمة المنطوقة على الكلمة المكتوبة، فإنّه يخفق تماماً في إدراك السـياق الفكري في القرن التاسـع عشر. إذ أنّ سوسـير عندما كان يقـاوم العواقب المضللـة المحتملة لاسـتخدام أسـلافه للمصادر المكتوبة فقط في الوصف اللغـوي (بما في ذلـك الوصف الصوتـي)، فقد كان في الوقـت ذاتـه يتبنّـى دراسـة الكلمـة المنطوقـة الحقيقيّـة والنظـر في اللغـة المكتوبة بصفتها منظومة سـميولوجيّة مسـتقلة لكنّهـا مرتبطة باللغـة المنطوقة التي سـبقتها في الظهور. ويُعدّ هذا الاتجاه أمراً مقبولاً لدى علماء اللغة، ولكن عندما نأخذ السياق الأرحب نجد أنّ تفوّق الكلمة المكتوبـة فـي مجـال التعليم وسـلطة النصـوص الدينية المقدّسة وما إلى ذلك هو السائد، ويثير ذلك الاستغراب عندما يتهم دريدا العالم الغربي بتفضيله الكلمة المنطوقة خـلال قرون من الزمن. ويسـتنتج هاريس أنّ دريدا يجد تلـك الحيـل البارعـة ضروريّة ليجعـل موقفه يبـدو كأنّه اكتشـاف جـذريّ مقنع. ويؤكّـد هاريـس أنّ تأويل دريدا لسوسير عديم الفائدة من الناحية الأكاديميّة.

أمّـا مـا يتعلق بتحريـف المصادر بشـكل غيـر علميّ واضح، نجد أنّ بارت ودريـدا يحرزان الجائزة الكبرى، عندمـا نلحظ الكيفيّـة التي يقتطـع بها دريدا اقتباسـاً من كتاب "دروس" ويخرجه من السياق الخاصّ بالعلاقة بين الصوت والمعنى (يُنظر كتاب دريدا، ١٩٦٧، "في نظريّة الكتابـة" ص٥٣). ويقوم دريـدا بترديد عبارة ياكوبسـن المغلوطـة "أنّ اللغة هي منظومة من الإشـارات". ولكن فـي مثـل هذه الحـالات لا بدّ مـن التمييز بيـن التحريف (سـواء الناجم عن اللامبـالاة أمْ المتعمّد) والاقتراحات البديلة.

ويسـتخدم المؤلـف السـياق التاريخي إطـاراً لطرح السـؤال عن السـبب في كـون منظومة سوسـير التزامنيّة فكـرة جذابـة للغاية ـ خـارج مجال علم اللغـة. ويُجادل المؤلف أنّ علم اللغة التزامنيّ كان مناسـباً بشكل واضح ليكـون علـم اللغـة "الجديد" لحقبـة أرادت أنْ تتناسـى الماضـي. كمـا أنّ منهـج سوسـير التزامني يُفهـم بصفته "مصداقيّـة الحداثة" لأنّ القيـم المتضمّنة في المنظومة التزامنيّة والمُصانة بها هي قيم متداولة حتماً وبالضرورة: فهي ليست قيم المنظومات السابقة ولا يمكن أنْ تكون. ويقدّم هاريس في هذا المجال تسويغاً للطريقة المعتمدة فـي تحديـد التأويـلات المقبولة لأفكار سوسـير، إلا أنّ ذلـك لا يُفصـح عـن المعايير التـي يعتمدها فـي التمييز

بين الغثّ والسمين. بلْ نراه يوضّح سبب درج مجموعة من التأويلات التي يعدّها غير صحيحة في كتاب واحد. ويبيّن ذلك بقوله بـ"أنّ التأويلات المشكوك فيها أو المعيبة ـ لكونها كذلك ـ يمكن أن تكون مهمّة بصفتها دليلاً تاريخيّاً. خاصّة إذا كان ما يظهر من دراسة التأويلات ومقارنتها ـ في الحالات التي تطرّقنا إليها هنا ـ أنّها ليست نتاج الخطأ العرضيّ أو الخاصّية الفرديّة، بلْ هي مترابطة بنمط متجانس".

يستعرض الكاتب في "الحاشية" ـ مادّة جديدة لمْ تكن موجودة في الطبعة الأولى من هذا الكتاب. وقد كتبه المؤلف مستدركاً ما فاته من ذكر المخطوطات المكتشفة حديثاً، التي كتبها سوسير وهي غير معروفة سابقاً وقد تمّ اكتشافها في عام ١٩٩٦ في جنيْف في بيت العائلة الذي ولد فيه سوسير وعاش فيه خلال خمسة وعشرين عاماً من سني حياته الأخيرة. وقد قام الباحثان المختصّان بدراسة سوسير ـ رودولف أنجلر وسايمون بوكيه ـ بتحقيق مجموعة من تلك المخطوطات، وقد اشتملت على نصّ طويل ربّما كان مسوّدة مطوّرة لكتاب في علم اللغة لمْ يتسنَ لسوسير إنهاؤه. وقد شكل نشر تلك المخطوطات باللغة الفرنسيّة في عام ٢٠٠٢ بعنوان "كتابات في علم اللغة العام" (دار النشر جاليمار، باريس) حدثاً بارزاً إذا أخذنا بنظر الإعتداد أنّ مجمل أفكار سوسير عن اللغة كانت قد تعارف عليها المهتمّون بعلم اللغة بوساطة الأدلة غير المباشرة في معظم الأحيان. لمْ تغيّر محتويات تلك المادّة الجديدة مباديء المدرسة السوسيريّة بشكل جذريٍّ، بلْ ساعدت على إعادة تقييس جوانب مهمّة من المنهج النظري لمؤسّس علم اللغة الحديث. وقد قامت كارول ساندرز ـ المتخصّصة في أعمال سوسير وأستاذة علم اللغة في جامعة سري (Surrey) البريطانيّة ـ بترجمة الطبعة الفرنسيّة إلى اللغة الإنجليزيّة.

وختاماً لا بدّ لي أنْ أذكر الصعوبات التي اعترضت ترجمة هذا الكتاب، على سبيل المثال لا الحصر كثرة الاقتباسات التي جاءت في معظمها باللغة الفرنسيّة (فضلاً عن الإحالات والمصطلحات والتعليقات داخل متن النصّ)، إلا النزر اليسير منها فكان باللغة الإنجليزيّة. وقد أدرك المؤلف لجوءه إلى اللغة الفرنسيّة في مواضع كثيرة من الكتاب فذكر في مقدمّته للطبعة الأولى من الكتاب المسوّغات التي يراها موجبة لاستخدام النصوص المقتبسة بلغتها الأصليّة، أيْ باللغة الفرنسيّة. ومن الجدير بالذكر أنّ المختصّين بدراسة أعمال سوسير من الناطقين باللغتين الإنجليزية والفرنسيّة غالباً ما يتطرّقون إلى التحديات التي تجابههم في محاولاتهم نقل المصطلحات السوسيريّة إلى اللغة الإنجليزيّة. ولا أحسب أنّ الدارسين من الناطقين بلغة الضاد المختصين بدراسة سوسير ونقل أعماله إلى العربيّة أوفر حظاً من أقرانهم أولئك.

قراءة: د. أحمد شاكر الكلابي